مصر منذ ثلاثين سنة

(١٠)

وداع القاهرة

ها انا مغادر القاهرة مدينة الغرائب والعجائب . اقرأها على الصفحات واصف بعد ان مكثت فيها ثمانية اشهر درست فيها حالة مصر والمصريين وتعودت معيشتهم وخبرت احوال الشرق والشرقيين وعوائدهم . تركت مدينة الآثار وقد كانت زاهية زاهرة حية عامرة والآن قد عبث الدهر بقصورها وجوامعها ومبانيها الفخمة وعفت رسومها فاصبحت خرائب دارسة . كانت القاهرة كغيرها من مدن الشرق لابسة ثوباً قشيباً من الحضارة والغباء وزاهرة في العلوم والفنون والآن اصبح ثوبها هذا بالياً . على انني ارى ان دلائل اليقظة والتجدد تجددت فيها ولا بد ان يأتي يوم قريب تصبح قاعدة الصلات بين الغرب والشرق او بين اوربا والهند الانكليزية

احصاء سكان القطر المصري

وفي هذا المقام اذكر تعداد اهالي القطر المصري بحسب الاحصاء الاخير الذي عملته الحكومة من عهد قريب . وقد اتبعت فيه طريقة غريبة غير وافية ولا مدققة ولكن يمكن بواسطتها معرفة عدد السكان بوجه التقريب فليس عند الحكومة سجلات قيد ولا سجلات للمواليد والوفيات لمعرفة عدد الاهالي ولم تتبع في التعداد الطريقة المتبعة في اوربا في احصاء سكان كل حي ومسكن مأهول بل اتخذت عدد البيوت والمساكن قاعدة للاحصاء وهذه الطريقة كثيرة الخطاء كما لا يخفى فحسبت ثمانية نفوس في كل مسكن من مساكن القاهرة . وستة في كل بيت من بيوت الارياف وقراها . وخمسة في كل بيت من مدن الاسكندرية وبولاق ومصر القديمة ورشيد . واما دمياط فلما كانت مدينة عامرة كثيرة السكان اقترضت في كل بيت منها ستة نفوس . فبلغ تعداد سكان القطر المصري على هذه الطريقة في الاحصاء ٢٥٠٠٠٠٠ مليونين ونصفاً من النفوس منها مليون ومئتا الف من الذكور والباقي من الاناث . ومن الذكور ارى بعمانة الف من القادرين على حمل السلاح . وظاهر من هذا الاحصاء ان مليونين من المصريين مسلمون و ٦٥ الفاً قبط وعشرة آلاف ترك وثلاثون وخمسة آلاف سوريون مسيحيون . وخمسة آلاف روم . والفين ارمن . وخمسة آلاف يهود . ونحو سبعين الفاً من النوبيين والبرابرة والعبيد . ولم يدخل في هذا الاحصاء

العربان والعرب الرحّل وسكان الواحات والصحارى فليس لهم منازل للاحصاء . واما سكان القاهرة وحدها فبلغوا ثلاثمائة الف نفس

الذهبية او المركب

فقلت لكن صاحبي وامتعتي التي جمعتها في مصر حتى ريّاس يبقى واقتاض الطيور الى الذهبية او المركب الذي استأجرتهُ وكان راسيًا في مرفإ بولاق واخذت جاريتي زينب واستقلتها . وقبل ان ابرح القاهرة قصدت ان اودع اصدقائي ومواطني . فذهبت الى سدام بونوم ترجمانتي فتادتني الى مخازنها الداخلية وارتني شيئًا كثيرًا من امتعة السفر من خيام وظلال وادوات الطبخ ومقعدات وما كولات محفوظة ومشروبات فابتعت شيئًا منها يكفيني للوصول الى سوريا . ثم اوفدتني امام مجموعة من الرايات واعلام الدول البحرية المختلفة وقالت لي انتقِ ما تشاء من هذه الرايات . فقلت لها وما فائدتي منها انول وتبني حامل اللواء وهل انا ذاهب للحرب . قالت ان كل السياح والافرنج يحملون معهم رايات الدولة التي ينتمون لها و ينصبونها فوق خيامهم او يرفعونها فوق صواري المركب في اسفارهم الليلية لئلا يعتدي احد عليهم . فالرايات الاجنبية لها حرمة ومهابة في قلوب الاهالي وعدا ذلك فلست مضطرًا ان ترفع راية دولتك الفرنسوية فان اكثر السيّاح على اختلاف جنسيتهم يفضلون رفع الراية الانكليزية في هذه البلاد فوق خيامهم ومراكبهم الليلية لانها اكثر امنيةً ومهابةً في عيون الاهالي كما ان الراية الفرنسوية تفضل في سوريا على غيرها من اعلام الدول واما في بلاد فلسطين فاكثر السياح يرفعون راية دولة سردينيا الكاثوليكية (كانت وقتئذٍ تحت حكم آل سافوي ملوك ايطاليا الآن) فانها اكثر قبولاً وحرمة عند اباء الاراضي المقدسة فقلت لها اذا كان ولا بدَّ من ذلك فلا ارفع الاَّ راية دولتي الفرنسوية

حفلة خنان

وفي صباح اليوم التالي اقلع بنا المركب من مرفإ بولاق وكان راسيًا بجانب قصر عظيم لاحد الامراء المماليك استولى عليه الباشا وجعلهُ مدرسة للصنائع والفنون الحربية . ورأيت هناك في فضاء واسع من الارض اكوامًا من الفخار والخزف من جرار وازيار وقوارير وقال وكلها من صنع بلاد الصعيد الاعلى تحمل من هناك على اطواف . وبعد ساعة وصلنا الى جزيرة رملية بين بولاق وامبابه وهناك سكنت الزنج وخرج المركب في الرمال فقطس البحرية وكانوا ستة الرمس فدفعوا المركب الى الماء بعد تعب ومشقة وكانت وجوههم تتصبَّب

عرفاً و « الريس » جالس على المقعد فوق ظهر المركب يدخن بنارجيلته كأنه بائد البحار اسطول بأكمله الاخير

كان المركب يسير بنا الهوينا لسكون الريح الى ان وصلنا عند الظهر الى الضفة اليمنى على بعد ميل من بولاق عند حدائق قصر بناه احد امراء محمد علي باشا هناك يكثر قصب الحاب على ضفاف النيل وقد نبت اعلاها من تفتقة الضفادع فاين نبات القوتس الارجواني والبردي واين طيور المقلق التي كانت كثيرة على ضفاف النيل كما يصفها لنا السياح الاقدمون ؟

ولما مالت الشمس للغروب رأيت عن بعد انوار مصابيح تنعكس اشعتها الفضية عن الماء وسمعت انغام الرباب والناي والمزمار تخللها اغنية شرقية اعتادية « يا ليلي يا ليلي » وبلغ الى سمعي نشيد متكرر بدوياً « يا ليالي الافراح » ولما قربنا من الشاطئ رأينا جمعاً كبيراً من الناس يموجون في ساحة واسعة وبينهم النساء الغرويات والغلمان يسرحون و يرقصون و ينشدون و يصفقون طرباً على قرع الطبل والدربكة فظننت انهم في حفلة عرس او مولد ولي كالموالد التي شهدتها في اسواق القاهرة . وبعد هنيهة وقف بنا المركب عند تلك القرية واذ الريس بانزال المرامي وطي الشراع فدهشت من ذلك وتقدمت اليه وسألته بجدة

ماذا تقصد هل تريد ان تبيت هذه الليلة هنا بعد ان قضينا ست ساعات في النيل لم نجتز فيها بعد ميلين . فاجاب بعدم اكتراث نعم لان الريح ساكنة (الهوا بطال) ولا يمكننا ان نقلع من هنا قبل عصارى الغد حينما تهب الرياح الجنوبية الغربية الموافقة لمسيرنا . قلت مر رجالك اذاً ان يجروا المركب بالحبال من الشاطئ . قال يجب حينئذ ان ادفع لهم اجرة مضاعفة وعدا ذلك فليس في صك الاتفاق المعقود بيننا ما يضطرني الى جر المركب عند سكون الريح وحقيقة الامر ان توامر القنصلاتو الذي استأجرلي الدهبية من هذا المراكبي المدعو رمضان على اخذ منه صكاً مكتوباً باسمي ومرفوعاً عليه امام قاضي القسم . فرضخت لحكم القضاء وقلت للريس لا باس وسأبيت هذه الليلة في غرفة الدهبية . وكان فيها غرفتان مفروشتان ولما نافذ مشبكة مطلة على النيل وعلى ظهرها مقاعد شبه ايوان مفروش حوله قصاري الزهور والرياحين . فاجابني « لكني ادعوك الى هذه البلدة لتشرف منزلي فعندي حفلة طهور اقيمت منذ امس وهذه هي الليلة الاخيرة . قلت ولكني لا استطيع ترك جاريتي هنا وحدها . قال فلتأت معنا ولتقم مع حرمي فانها ستسر كثيراً وتشترك معنا بالفرح

فتوجست في بدء الامر خيفة ولكني تأكدت بعد ذلك ان الرجل حسن النوية كريم

اخلق وهو من اعالي تلك البلدة (شبرا البلد) المبنية على ضفاف الترعة الشبراوية . وانهُ اقام حفلة ثانية عند ابنهِ الذي ترك فيها كل ما يربو وامل بلدته حسب العادة

ولما وصلنا الى البلد دخلنا الرجل الى منزلهِ وامامهُ ساحة واسعة ازدحم فيها الاهالي رجالاً ونساء وظلوا فاستقبلونا بالزغردة والاناشيد كما في اعياد قيصر بدخول رومية ظافراً . فدخلت زينب الى غرفة حرم الرجل ثم اخذ بيدي واجلسني على فراش امام رجل شيخ ذي لحية بيضاء وعرفني بهِ وقال لي انهُ ابوهُ وانهُ يعرف كثيرين من رجال الحملة الفرنسوية ويفهم شيئاً من هذه اللغة . فسررت جداً من هذا التعارف الا اني وجدت ان هذا الشيخ لا يفهم من لغتنا سوى بضع كلمات التقطها من افواه الجنود في الشوارع . وحدثت نفسي بان استأجر حماراً وارجع الى القاهرة من طريق شبرا فاقضي السهرة في مكتبة مدام بونوم وآخو بقزاعة الجرائد ومجالسة الكتب دفعاً للملل ولكن التفاف القوم حول حلقة الرقص والاناشيد الوطنية على وقع المزمار والطبل ألهاني عن هذا القصد . وطاف الناس يوزعون القهوة والتبغ على الحاضرين ووزعت « البوظة » في قصاع من خشب على النوبيين والبرابرة وكانوا حول حلقة الرقص وحدهم . والبوظة تصنع من نقيع الشعير وكانت معروفة عند المصريين الاقدمين وقد وصفها هيرودوتس في كتابهِ عن مصر بانها « خمير الشعير »

ثم التفتُّ نحو رفيقي الشيخ لافهمهُ بالحديث وقلت لهُ هل رأيت نابوليون لما كان بمصر . فنظر اليَّ ببلاهة وظهر لي انهُ لم يفهم ما اقول وهز رأسهُ مستفهماً . فقلت لهُ عجباً الا تعرف نابوليون بونابرت ولست شيخ . فلما سمع كلمة بونابرت ابرقت اساريره وجعل وحنى رأسهُ كثيراً الى الامام علامة الاحترام وبدأ ينشد نشيداً عربياً بدؤهُ « يا سلام بونابارته » بالنغم الفرنسوي فعلمت ان هذا الجنرال لم يكن معروفاً في مصر الاَّ بهذا الاسم . فاغرورقت عيناي بالدموع بينما كان الشيخ ينشد نغماً فرنسوياً وطنياً . ولما ذكرت لهُ اسماء القواد العظام الذين كانوا في الحملة كنز وكليبر وبرتولي مدير الضبط والامن العام في مصر قال انه يعرف هذا الاخير وكان طويل القامة ضخم الجثة مهيب الطلعة والمصريون لا يحسنون النطق باسمهِ فكانوا يدعونهُ « ترخ الرومي » . وبدأ الشيخ ينشد نغماً عربياً كان شائعاً وقت الاحتلال هذه ترجمتهُ « حبيبي لابس برنيطة وعلى حزامه الشريط الاحمر . جيت لبوسه قال لي « آسيتاً » (توقف) الله يخرس في سواد عيونه . عيونه عيون الغزلان يا ما احلى ترخ الرومي وفي ايده الفرمان بالعفو والامان »

ثم ابتدأت حفلة الختان باجتماع القوم واركبوا الغلام ابن الرئيس على جواد وهو بثياب زاهية مقصبة وحوله رفقاؤه الغلمان في المدرسة يشيرون في عنق الحدم الرحبة التي كان يقرأ ويكتب فيها وعليها آية قرآنية من خطه وبجانبه العريف معلمه وفي الجانب الآخر الحلاق المطهر ومساعده وبين ايديهما الطشت والموسى وغيرهما من ادوات « التطهير » وسار هذا الموكب في طرقات البلدة بين زغردة النساء ودق الطبول ثم المزمار ورش القاق ماء الزهور ولما رجع الموكب الى المنزل وقف اربعة من الغلمان وحملوا شالاً حريرياً من اطرافه ووضعوا في وسطه لوحة الغلام المشار اليها ودارواً بين القوم يجمعون النقود او النقطة ويقال لها عندهم « الصراعة » باسم الغلام والحقيقة انها لا يبيع اعانة له مقابل النفقات التي صرفها على الحفلة

ثم جاء دور الحلاق المطهر فجلس بين الغلام وذويه والطشت وادوات التطهير بين يديه وكان كل من الحضور يتقدم ويضع في الطشت بعض قطع من النقود وهي « نقوط » للمطهر ومساعده

ثم عملت عملية التطهير بين زغردة النساء واغاني القوم وضجيج الطبول ثم المزمار والناي حتى لا يسمع صراخ الغلام وبكاؤه وعند خلاء العلبة وضعت الموائد للعشاء فجلس اولاً الحلاق المطهر ومساعده والعريف ثم اهالي البلد في دوائر او حلقات حول المائدة وكان كل من بالصف الاول يأخذ قطعة من اللحم فيقضم منها شيئاً ويناولها لمن كان خلفه في الصف الثاني وهكذا بالتتابع الى ان تصل الى الدائرة الاخيرة ولم يبق منها سوى العظم فيجردوها ويلقوها وراءهم الى دائرة الكلاب . وعند الفلاحين كل الناس يشتركون في الولائم والافراح حتى كلاب الحي . وهذا منتهى الكرم

فجلست اتفرج على هذه الوليمة بسرور وعند ختامها وزعت القهوة على الحاضرين والبوظة على النوبيين ودار الرقص والغناء على وقع الناي والرباب الى ما بعد نصف الليل وكان ذلك ختام الحفلة

القابة المتحجرة

استيقظت باكراً والقوم كلهم نيام فبدأت افكر كيف اقضي ذلك اليوم الى ان تهب الريح الجنوبية عند المساء . فخطر على بالي « القابة المتحجرة » وهي على بعد ساعة من القاهرة عند صحراء هليوبوليس . وكنت قد التقيت رانما في سيرا احد بلاد اليونان بصديق لي من ضباط البحرية الفرنسوية اهدى اليّ غدارة بديعة الصنع وطلب مني ان احضر له معي عند

وجوعي بعض فلس متجهة من هذه الغابة حتى اذا رجعت من الزيارة ... رجوعي من سوريا اضعف عندها ... وترى دي فار بشارح ... وروعة السياح بالطبع بعض مقدمة ركبي كنت اذوب خجلاً من التقيد بصدقي هذا مرة وقد اطلقت سمة الرعد وعدا ذلك فاني اتخذ هذه الفرصة لاتفرج على الغابة المتحجرة العجيبة والمسلة الفرعونية القريبة منها . فابتطت الريس وذكرت له عزمي هذا فاحضر لي حماراً نشيطاً عارفاً الطريق فخرجت من البلدة وسرت على ضفة الترعة الشرقية ورأيت آثار ترعة ادريان القديمة التي سفرت على عهد ادريانوس القيصر الروماني بين النيل والبحر الاحمر وسميها بالغة به من مدينة السويس غير ان رمال الصحراء طمرتها من قديم الزمان ولم يبق سوى آثارها . والاراضي حول شبرا خصبة زاهرة تتخللها غابات النخيل . ومررنا في طريقنا على بساتين ورياض غناء من الاشجار المثمرة والبرتقال . وهناك اراض خصبة تروى من مياه الترعة او من النواعير (السواقي) تديرها الثيران . وبطا في دورانها فتم محزن كنوح الحمام . ثم اجتزنا ترعة الخليج المصري ووصلنا بعدها الى صحراء رملية قاحلة اشرفنا منها على جبل المقطم وظهرت لنا قباب قبور الخلفاء حيث دفن اكثر ابطال الاسلام وملوكهم كابن طولون وبيبرس والملك العادل . وبعد مسير ساعة وصلنا الى ناحية عين شمس هليوبوليس وهناك آثار السد القديم وكان قبلاً سداً متيناً عالياً اقيم حول هذه المدينة ليقي عاصمة الفراعنة وهيا كل معبوداتها من مياه الفيضان ومن عواصف رمال الصحراء الشرقية . ولم يبق الآن من هذه المدينة العظمى حجر على حجر سوى تلال وآكام وحفر واماكن مسلاتها والمسلة هيا كلها التي كانت تعد بالمئات فلم يبق منها سوى مسلة واحدة في وسط غابة . فاقبل عليها وقبلتها وقبلت لي بعض اثمار وازهار ثم جلست استريح على قاعدة المسلة افكر فيما كانت عليه هذه المدينة من الحضارة والعظمة والهياكل والابنية الفخمة كما وصفها سترابون وهيرودتس وغيرهما من مؤرخي اليونان وقالوا انها معهد العلوم في الشرق . وكان حول هيكل الشمس مئات من المسلات بين كل مسلة واخرى تمثال ابي الهول (سفنكس) لم يبق منها الى اواسط القرن الماضي سوى سفنكس واحد وثلاث مسلات نقل منها اثنتان الى الغرب . ورأيت على دهشة بي حشرماً من النحل وكره في نقرة عالية من المسلة ملأها عسلاً . وهنا ذكر السائح نقلاً عن الكتب والتقاليد القبطية التجاء العائلة المقدسة الى هذه المدينة عند مجيئها الى مصر وان احد سكانها اضافها عنده وهو اللص الذي صلب على اليمين) . وعلى بعد قليل من المسلة بلدة المطرية حيث العين والشجرة المشهورتان للعذراء مريم وهذه

العين تنبع من الارض بين حجرين وقيل انها النبع الوحيد الموجود في البلاد المصرية . واما الشجرة التي قيل ان العذراء جلست تحتها تستريح من وعثاء السفر مع طفلها ورجلها فهي شجرة جميز ولا اظن ان عمرها يبلغ اكثر من خمسماية او ستماية سنة ولكن من الممكن ان تكون فرعاً او فسيلة من الشجرة القديمة التي كانت على عهد المسيح . وهذه الشجرة لها حرمة واكرام عند جميع المسيحيين على اختلاف نحلهم

رجعت من المطرية ومررت على آثار ترعة ادريان في الرمال وهناك طريق العربات بين القاهرة والسويس وبعد ان سرنا مسافة قليلة وصلنا الى ارض رملية حجرية (بين محطة الزيتون والمطرية الآن) تخللها اشجار البلسم والطلحب والعوسج والنباتات الفطرية والشوكية واروماث غليظة جداً هائلة الكبر هي بقايا نخلات قديمة وهذه هي الغابة المتحجرة . وقد اجتذب نظري رجم كبيرة من الحجارة الرملية المتكلسة اذا فتت واحد منها ترى داخلهُ مملوءاً من القوقع والمحار والاصداف التي لا توجد عادةً الاَّ على شواطىء البحر الملح . واغرب من ذلك انك تجد على بعض الحجارة او الحصى (الزلط) رسم اثمار واسماك ودوبيات وعروق واغصان اشجار متحجرة . فمتى كان هذا التحجر ؟ وهل كانت اراضي بلاد الدلتا مغمورة بمياه البحر المتوسط في العصور الخالية كما يذهب اليهِ بعض العلماء والمؤرخين ثم تغلب عليها طمي النيل شيئاً فشيئاً الى ان رجع البحر الى حدودهِ المعروفة الآن ؟ وكم من ملايين السنين مضت على هذا النشوء او التحول الحجري ؟ قال العلماء المعتقدون بالوحي ان وجود بعض رواميز الاصداف والاسماك والنباتات المتحجرة في اعالي الجبال وعلى بعد مئات من الاميال من البحر لدليل حسي على حقيقة حدوث الطوفان العام الذي طغى على وجه الارض واغرق المسكونة كلها كما جاء في التوراة . ولكن فاتهم امر جوهري وهو انهم يحددون تاريخ حدوث الطوفان فيجعلونهُ نحو ستة آلاف سنة وهذا التحول الحجري لا يمكن ان يتم باقل من ستة ملايين سنة فما هي الحقيقة ؟

السفر الى دمياط

ركبنا عصاري ذلك اليوم في الذهبية فسارت بريح موافقة حتى وصلنا الى بطن البقرة حيث النقطة السفلى لزاوية الدلتا . ثم غابت عنا رؤوس الاهرام واظلم الافق . وكان مسيرنا في الفرع الشرقي اي على مجرى النيل الاصلي الذي يصب في دمياط وعلى ضفتي هذا الفرع اراضٍ خصبة ومروج زاهرة وبلاد عامرة . فاجتزنا بلدة « شلقانية » المبنية على اثار مدينة مركاسورم القديمة ثم مررنا ببلدة دجوى وكانت منذ عهد قريب مركزاً او وكراً لعصابة لصوص النيل

يترصدون مرور المراكب ليلاً ويتجمعون مباحة ويتخاطفون ما تصل اليه ايديهم من البضائع والاموال ثم يختفون في الجزائر التي هناك · ومررنا على خرائب اتريب القديمة · قرب بلدة · وفي اليوم التالي رسونا عند بلدة بيت غمر وهي كثيرة العمران والسكان وجامعها قديم جداً ماذنته مربعة الشكل كان قديماً كنيسة مسيحية قبل الفتح الاسلامي · واجتزنا بلدة ابو صير وهي بوزيرس القديمة ثم مشرود الجنية على آثار مدينة سباينوس القديمة · وعلى مقربة من هذه البلدة آثار او خرائب هيكل مصري عظيم كثير القدم كان للعبودة ايزيس مبني على اعمدة كثيرة فوق كل عمود تاج مزخرف بالنقوش البديعة تمثل رؤوس نساء بارزة · وقد ذلك الاهالي اكثر هذه الاعمدة وقطعوها وصقلوها حجارة للطواحين

ورسونا في مساء اليوم الثالث امام مدينة المنصورة وقد اسفت جداً لاني لم اتمكن من التفرج على معامل تفريخ البيض المشهورة في هذه البلدة وعلى بيت ابن لقمان حيث اسر الملك لويس التاسع · ولما صحونا عند الصباح من النوم فوجئنا بنبأ مزعج ذلك اننا رأينا العلم الاصفر مرفوعاً فوق مركز الصحة وقيل لنا ان اكثر بلاد الدلتا الى دمياط موبوءة بالطاعون · فلم نتمكن من الدخول الى البلد لابتياع ما يلزمنا من مؤونة وغذاء وقد فرغ ما كان عندنا منها فواصلنا سيرنا الى بلدة فارسكور وهناك ظهرت لنا اعيننا بجاني العمران والخصب والمناظر الخلابة الجميلة من المروج المخضبة وغابات النخيل الزمردية · ثم دخلنا في خليج مدينة دمياط وظهرت امامنا ابنيتها العامرة كدائرة حول الرصيف وهي على الطرز الايطالي مكللة واجهاتها وسطوحها بقصارى الزهور والرياحين · ودخل دمياط على هذا الوصف يشبه مدخل البندقية

فرسا بنا المركب في النهر الكبير امام بناية عظيمة عالية الجدران يخفق فوقها علم الحكومة الفرنسوية ولم يسمح لنا بالدخول الى المدينة الا صباحاً بعد ان يزورنا طبيب الكرنتينا وكان العلم الاصفر مرفوعاً فوقنا دلالة على ان المدينة موبوءة بالطاعون · فقضينا الليلة في الذهبية وعند الصباح رفعت العلم الفرنسوي فوق ساري مؤخرتها وقد اجأتني الضرورة لاعلان جنسيتي قبل ان يزورنا رجال الصحة · وبعد ساعة اطل علينا من الشاطىء قواس قنصلية فرنسا وقال لي ان القنصل لما رأى العلم الفرنسوي على المركب ارسله لينظر من القادم ويعرض عليه ما يريد من الخدمة والمساعدة · فعرفته بنفسي وقلت له اني قادم من مصر ومسافر الى سوريا ومعي كتاب توصية من قنصل جنرال فرنسا الى قنصل دمياط واريد ان اقابله واسلم الكتاب اليه بيدي · فغاب القواس هنيهة ثم رجع ودعاني ان اذهب معه لمقابلة

القنصل . فلم يتيسر احد من رجال الحفظ والصحة على معارضة قواس القنصل لخروجه من المركب وابتهجت وارتاحت ان لا المس احداً في الطريق بل ابرح احداً يلمسني وكان يسير امامي وهو يشير الالباني وغداراته في وسطه يقرع بعصاه الفضية المنحوتة بشعار ذهبية على البلاط قرعاً عنيفاً متواصلاً ليبعد عن طريق الناس والغلمان الذين ازدحموا ليتفرجوا علي . وكانت القنصلية على مقربة من الرصيف فدخلنا فيها واذا هي بناية كبيرة واسعة عالية كثيرة المداخل يقال لها «وكالة» (١) وفي اعلاها مسكن قنصل فرنسا ويدعى م. سرور وهو سوري الاصل ومن كبار تجار الارز في دمياط فاصعدني القواس الى بهو كبير مفروش بالفرش الرباش وفي صدره رجل جالس وهو بثياب شرقية فقال لي القواس هذا هو القنصل . فحنيت رأسي احتراماً واخرجت من جيبي كتاب التوصية وقدمت لاصلة اليه فرفع يده نحوي وقال لي بلهجة يشوبها الافتخار «آمبتا» اي توقف فعلمت ان الرجل يأبى ان يمسني لانهُ من حين ظهور الطاعون في دمياط انزوى في بيته لعدم الاختلاط باحد كانهُ في حجر صحي ثم خرج من باب ورجع وهو حامل ملقطاً والتقط بهِ الكتاب من يدي ومزق غلافهُ بسكين واخرج الرسالة بالملقط وقرأها بيدهِ من اولها كانهُ مصاب بالطاعون مع انهُ آتٍ من بلاد سليمة . ولما عرف من انا وما هي منزلتي بين قومي خفف شيئاً من حذره وعبوسته الاولى ورحب بي واشار اليَّ ان اغتسل ودعاني للجلوس معهُ على مائدته اغتداء

ثم دعا كاتب سره او ترجمانهُ (قونشلير) ليكون ترجماناً بيني وبينهُ لانهُ لا يحسن كثيراً التكلم باللغة الفرنسوية واظهر لي صريحاً ان دعوتهُ لي لتغداء داخلة ضمن حدود اكرامنا فلا المس شيئاً الا ما يقدم لي الخادم . وحينئذٍ تذكرت رفقائي رئيس المركب وبحريتهُ وقد فرغت المؤونة من عندهم وحجر عليهم فلا يقدرون ان يتناولوا باحد فرجوت من القنصل ان يرسل لهم شيئاً من القوت فعمل وامر ان يقدم لهم الخبز والدجاج واللحم بواسطة القواس فشكرت القنصل على لطفهِ وكرمهِ والشرقيون معروفون بالكرم وحسن الضيافة ثم ذكرت لهُ جاريتي زينب وطلبت احضارها الى القنصلية فحضرت مع القواس ولما مثلت امامهُ حدق فيها كثيراً فرأى ما هي عليهِ من غضاضة الصبا والجمال الجاوي فقطب حاجبيهِ والتفت نحوي وسألني وهل انت مزمع ان تأخذ هذه المرأة معك الى فرنسا . قلت اذا شاءت ان ترافقني الى وطني فلا سبيل لي الى منعها . قال ولكن الا تعلم انها اذا وطئت الاراضي الفرنسوية فتكون حرة . قلت اني اعتبرها حرة منذ الآن . قال اولا تعلم انها اذا

(١) لم تزل هذه الوكالة باقية الى الآن الا ان معظم غرائب منهدمة وهي ملك اسرة سرور

سمعت الاقاصيص في فرنسا وزادت الرجوع الى مصر فانك مضطر لتسفيرها على نفقتك. قلت اعلم ذلك. قال اني اشير عليك يا سيدي نرفان ان تبيعها حالما تصل مالح جوان في البلاد برًّا وبحرًا ويشق عليك ان تصحب امرأة مثل هذه في اسفارك. قلت وكيف ابيعها في بلد موبوء بالطاعون فان ذلك منتهى القساوة. قال انت وشأنك اذاً. وظهر لي ان القنصل كان يقصد من ذلك ان يشتريها مني بثمن بخس ويجعلها خادمة في منزله. ثم ذكرت لهُ بواسطة الترجمان ما حدث لي في القاهرة من امر المكتبي والزواج وكيف اضطررت لشترى الجارية فتبسم ضاحكاً

ثم انتقلنا بعد ذلك الى قاعة الاكل وكان في وسطها مائدة كبيرة مستديرة وعليها الاطباق وحولها الكراسي فاشار اليَّ القنصل بالجلوس على كرسي منفرد وجلس بازائي في الطرف الاخر وعلى يمينهِ القونسلير وعلى يسارهِ ابنهُ وهو غلام صغير في السابعة من عمرهِ. واما القواس فوقف بيننا كعادتهِ. وكنت اوَّمل ان يدعو زينب لتشاركنا في الغداء. وكانت متربعة على حصير عند مدخل باب الحريم فربما ظنت هذه السادجة المسكينة اني احضرتها عند القنصل لكي ابيعها. وكان الخادم يقدم لنا الطعام على الطريقة الاوربية الاَّ انهُ كان يضع امامي صحافاً خصوصية لئلا اشترك مع الباقين في الصحفة العمومية منعاً للاختلاط. ثم بدأ الحديث بيننا فذكرت للقنصل بعمل رحلتي منذ خرجت من فرنسا وسياحتي في سويسرا والمانيا والنمسا وما لاقيتهُ من الحوادث النادرة في فينا والبندقية وبلاد اليونان وانتقالي من سيرا الى الاسكندرية واقامتي في القاهرة. وذكر لي انهُ ولد في سوريا وهو من الطائفة الكاثوليكية وانهُ يتاجر بين دمياط والشواطئ السورية بالارز والحبوب وغيرها [1]. واعتذر مني لعدم اشتراك زوجتهِ معنا في الاكل لان ذلك مخالف

(١) علمت بعد البحث الدقيق من بعض الاسر الدمياطية ان قنصل فرنسا الذي ذكرهُ هنا الشيخ عوَّاد ميخائيل ان جرجس سرور. واسرة سرور كانت في دمياط ذات وجاهة نشأت في دمشق الشام وهاجرت الى دمياط قبل عهد محمد علي باشا واكثر اعضائها كانوا قناصل لدول. وقد عثرت على نشرة من ادوار التاريخ القديم في الشرق طبعت في جنيف سنة ١٨٧١ جاء فيها تحت عنوان القناصل في الشرق ما يأتي لا انكلترا بيرسيل سرور. قنصل المولايات الخمس الايطالية الشمالية في دمياط وعندهُ وسام من ملكة اسبانيا ايزابلا الكاثوليكية ولد سنة ١٧٩٧ وهو ابن حنا سرور المشري الوجيه فيس قنصل انكلترا واسبانيا بدمياط وبعد وفاة ابيهِ سنة ١٨١٤ شغل الوظائف والرتب التي كانت لهُ وهو في السادسة عشرة من عمرهِ وكان متضلعاً من لغات كثيرة. وفي عام ١٨٢٦ اسندت اليهِ وظيفة قيس قنصل مرويسا ومنح الوسام المذكور من الملكة ايزابلا الكاثوليكية. وفي سنة ١٨٦١ عين قنصلاً للولايات الايطالية الخمس مدت مرويسا وهو ذو وجاهة كبيرة وبيده مفاتيح للشونة والغرباء بكرم شرفي ومقرب من سمو محمد علي باشا وصديق حميم لسمو فخامة ابرهيم باشا الذي بنى بهِ كثيراً وبكفالة قضاء الشعالة كلها »

للعوائد الشرقية ولكنهُ سيدعوها لتقابلني ويعرفني بها . ثم لم يمض الاَّ القليل حتى دخلت سيدة جميلة الخلقة في الثلاثين من عمرها رشيقة القوام كانت تخطو على مهل بخيلاء وتدلال . فجلست على مقعد عالٍ ذي وسائد من القطيفة (فرتيل) بعد ان حيت رأسها امامي مرحبة بي فوقفت احترامًا لها وكان شعرها الجميل مقرودًا على رأسها وعلى كتفيها شال اصفر من الكشمير الحريري الغالي الثمن مشبوك بحلية كبيرة ذهبية مرصعة بالماس وعلى شعرها وزنديها حلى مرصعة بالحجارة الكريمة تسطع بهاءً وكانت مكحلة العينين مزججة الحواجب على الطرز الشرقي فكانت على هذا الشكل وهي جالسة على المقعد الحريري المرتفع كأنها ملكة او عذراء رافائيل . وفي اثناء الطعام وجد القنصل نظر زوجته الى الجارية فكلمتها وسألتها بعض اسئلة لم افهم معناها . ثم امرت الخادم ان يأتيها بالطعام فاحضر لها سفرة صغيرة مستديرة ووضعها امامها فاكلت

وبعد الغداء خرجت لاتفرج على المدينة وتكرم القونسلير برافقتي فلم اجد فيها مايستحق الذكر سوى الابنية المرصوصة حول رصيف الميا وهي على شكل قوس (امفيثياتر) بعضها فوق بعض وكان القواس يسير امامنا ويبعد عنا الناس بعصاه الفضية . ورأينا قبة ولي مشهور لها حرمة عند الاهالي رخصوصًا عند البحارة المسلمين وزرنا كنيسة شرقية قديمة مبنية على الطرز البيزنطي من عهد الصليبيين . وعند باب المدينة تل او اكمة مسوَّرة بباب مقفل على الدوام وربما كانت جزءًا من السور القديم ويقال انها مدفن عظام جنود القديس لويس الذين قتلوا تحت اسوار دمياط

وفي تلك الليلة رجعت الى الذهبية ونمت فيها وفي الصباح حضر اليَّ القواس وقال لي ان مركبًا يونانيًا يدعى « آجيا برباره » سيقلع في مساء اليوم التالي من آخر بوغاز دمياط (رأس البر) وهو سائر الى سوريا وان استعد للسفر فيه . وان مركبًا للقنصل مشحونًا ارزًا سينقلني مع جاريتي وامتعتي في البوغاز الى هذا المركب اليوناني الراسي في عرض البحر . فسررت جدًّا من هذا النبإ غير المنتظر

ديتري نقولا